مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
مؤتمر الأئمة السابع عشر
هيوستن – أمريكا

إضاءات حول فتنة الإلحاد

أ.د/ صلاح الصاوي
الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

"الأراء في هذا البحث تعبر عن رأي الباحث وليس بالضرورة عن رأي أمجا"
Opinions in this research are solely those of the author and do not represent AMJA.

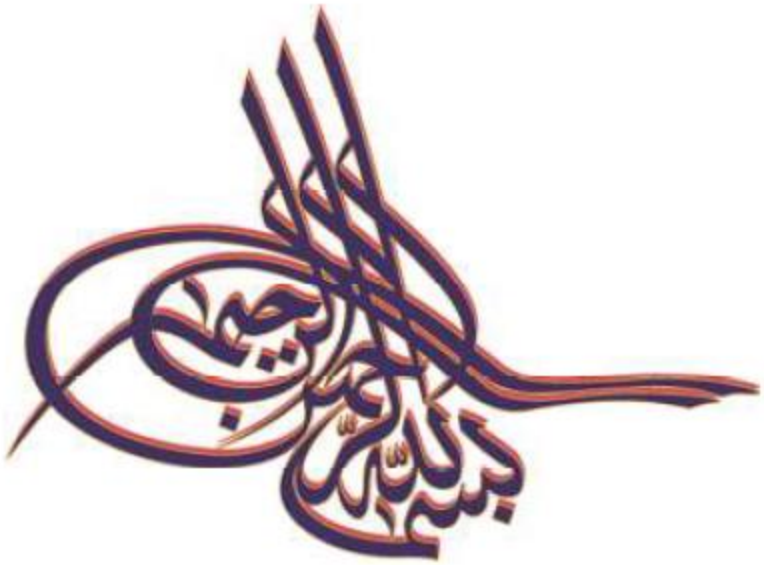
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

1. بين الإلحاد والحنف 4
2. الإلحاد بالمعنى العام كل تَرْكٍ للدين وهَجْر لأحكامه 5
3. بين الإلحاد والزندقة 7
4. أسباب الإلحاد 11
5. الغلو في الدين كان من أبرز أسباب الإلحاد 12
6. الأئمة المضلون كاسحات ألغام أمام الإلحاد! 12
7. هل بلغت فتنة الإلحاد مبلغ الظاهرة؟ 14
8. كيف نتصدى لفتنة الإلحاد 16
9. ضبط الخطاب الدعوي 16
10. حول تجديد الخطاب الدعوي 18

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد: فإن كلمة الإلحاد كلمة عربية فصيحة، فهي كما قال ابن فارس: "اللام والحاء والدال أصلٌ يدلُّ على ميل عن استقامة. يقال: أَلْحَدَ الرجل، إذ مال عن طريقة الحقِّ والإيمان". فأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والجور عنه، ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم، ومنه: اللَّحْد في القبر، فإنه سُمِّيَ لحدًا لأنه مائل في أحد جانبي الجَدَث، أي لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه. يقال: لحَدْت الميّتَ وألحدت. والمُلْتَحَد: الملجأ، سمِّي بذلك لأن اللاجئ يميل إليه[1]. كما قال تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[2].

وقال الأزهري: معنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد[3]. وقال الليث: ألحد في الحرم إذا ترك القصد فيما أمر به ومال إلى الظلم، وأنشد:

لما رأى الملحد حين ألحما صواعق الحجاج يمطرن دما[4]

فالإلْحَاد إذن: هو الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة.

1. بين الإلحاد والحنف

الحنف هو الميل، يقال حنف عن الشيء حنفا: مال. (حَنِفَ) الرجلُ - حَنَفاً: اعوجَّت قدمه إلى الداخل[5]. والحنيف في اللغة: المائل[6]، وأطلق على إبراهيم؛ لأن الناس في عصره كانوا على طريقة واحدة وهي الكفر، فخالفهم كلهم وتنكب طريقتهم، وفي لسان العرب لابن منظور رحمه الله: "الحنيف المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير ; قال ثعلب: ومنه أخذ الحنف، والله أعلم"[7] فالحنف في المعنى الشرعي: هو الميل عن عبادة الأوثان والاستقامة على عبادة الرحمن، فهي الاستقامة على ملة إبراهيم، واتباعه عليها، والائتمام به فيها[8]، قال ابن عباس : "الحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصله من الحنف ، وهو ميل وعوج يكون في القدم"[9].

وبهذا يظهر الفرق بينه كلمة الإلحاد كلمة الحنف، فإن في كل منهما معنى الميل، لكن إن كان ميلا من الخير إلى الشر فهو إلحاد، وإن كان ميلا من الشر إلى الخير فذلك الحنف في الأعم الأغلب، أو في المصطلح الشرعي، يقول الطبري رحمه الله: " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الْحَنِيفُ عِنْدِي هُوَ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَاتِّبَاعُهُ عَلَى مِلَّتِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ لَوْ كَانَتْ حَجَّ الْبَيْتِ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ كَانُوا

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (236/5).

(2) سورة الكهف، الآية [27].

(3) تهذيب اللغة، للأزهري (244/4).

(4) العين، للخليل بن أحمد (183/3).

(5) المعجم الوسيط (202/1).

(6) لسان العرب (57/9).

(7) لسان العرب (57/9).

(8) انظر: روح البيان، للألوسي (33/6).

(9) تفسير الثعلبي (282/1).

يَحُجُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا حُنَفَاءَ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَحَنُّفًا بِقَوْلِهِ: {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67] فَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْخِتَانِ؛ لِأَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ لَوْ كَانَتْ هِيَ الْخِتَانُ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْيَهُودُ حُنَفَاءَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [آل عمران: 67] . فَقَدْ صَحَّ إِذًا أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ لَيْسَتِ الْخِتَانَ وَحْدَهُ، وَلَا حَجَّ الْبَيْتِ وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهُ هُوَ مَا وَصَفْنَا مِنَ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَاتِّبَاعِهِ عَلَيْهَا وَالِائْتِمَامِ بِهِ فِيهَا"[10].

فإن قال قائل: أوَما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم، من الأنبياء وأتباعهم، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامةَ إبراهيم وأتباعه؟ قيل: بَلى.

فإن قال: فكيف أضيف "الحنيفية" إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم؟

قيل: إنّ كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متّبعًا طاعة الله، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم، فجعله إمامًا فيما بيّنه من مناسك الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، تعبُّدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنّ من ذلك عَلَمًا مميّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم، والمطيعِ منهم له والعاصي. فسمِّي الحنيفُ من الناس " حنيفًا " باتباعه ملته، واستقامته على هديه ومنهاجه، وسُمِّي الضالُّ من ملته بسائر أسماء الملل، فقيل: " يهودي، ونصرانيّ، ومجوسيّ", وغير ذلك من صنوف الملل"[11].

2. الإلحاد بالمعنى العام كل تَرْكٍ للدين وهَجْر لأحكامه

إذا كان التعريف العام للإلحاد يعني: الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة، فهذا يعني أن كل تَرْكٍ للدين وهَجْر لأحكامه هو نوع إلحاد، ومن ثم فالإلحاد يشمل كل أنواع الكفر والشِّرك بالله تعالى، والميل عن أوامره وأحكامه، والجرأة على نواهيه ومساخطه جل جلاله.

وقد وردت كلمة الإلحاد ومشتقاتها في القرآن في نحو من ستة مواضع[12]، فقد وردت في سورة الأعراف والنحل والكهف والحج وفصلت والجن، وكلها تدور في هذا الفلك، ففي سورة الأعراف قول الله تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[13].

وكان إلحادهم في أسماء الله، كما قال الطبري رحمه الله: "وَكَانَ إِلْحَادُهُمْ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ أَنَّهُمْ عَدَلُوا بِهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ، فَسَمُّوا بِهَا آلِهَتَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، وَزَادُوا فِيهَا وَنَقَصُوا مِنْهَا، فَسَمُّوا بَعْضَهَا اللَّاتَ اشْتِقَاقًا مِنْهُمْ لَهَا مِنَ اسْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ، وَسَمُّوا بَعْضَهَا الْعُزَّى اشْتِقَاقًا لَهَا مِنَ اسْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْعَزِيزُ"[14].

([10]) تفسير الطبري، ط. هجر (2/594).

([11]) تفسير الطبري، ط. هجر (2/594-595).

([12]) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة لغالب عواجي (2/1008).

([13]) سورة الأعراف، الآية [180].

([14]) تفسير الطبري (10/596).

وفي سورة النحل قول الله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[15].

ومعناها كما يقول الطبري رحمه الله: " وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ: إِنَّمَا يَعْلَمُ مُحَمَّدًا هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ بَشَرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُكَذِّبُهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ: أَلَا تَعْلَمُونَ كَذِبَ مَا تَقُولُونَ؟ إِنَّ لِسَانَ الَّذِي تُلْحِدُونَ إِلَيْهِ، يَقُولُ: تَمِيلُونَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا أَعْجَمِيٌّ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِيمَا ذُكِرَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الَّذِيَ يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا هَذَا الْقُرْآنَ عَبْدٌ رُومِيٌّ، فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 103] يَقُولُ: وَهَذَا الْقُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"[16].

وفي سورة الكهف قوله الله تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا }[17].

أي لن تجد من دون الله موئلا تئل إليه ومعدلا تعدل عنه إليه، لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمر أراد به. ونفس هذا المعنى في سورة الجن (في قوله تعالى (قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) أي ولن أجد من دون الله ملجئا ألجأ إليه.

وفي سورة الحج قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[18].

قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يرد فيه إلحادا بظلم نذقه من عذاب أليم، وهو أن يميل في البيت الحرام بظلم ... ثم ذكر اختلاف أهل التأويل في معنى الظلم الذي من أراد الإلحاد به في المسجد الحرام، أذاقه الله من العذاب الأليم، ثم قال: (فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم، فيعصي الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له)[19].

وفي سورة فصلت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[20].

قال الطبري رحمه الله: (يعني جلّ ثناؤه بقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) إن الذين يميلون عن الحق في حججنا وأدلتنا، ويعدلون عنها تكذيبا بها وجحودا لها[21].

([15]) سورة النحل، الآية [103].

([16]) تفسير الطبري (364).

([17]) سورة الكهف، الآية [27].

([18]) سورة الحج، الآية [25].

([19]) انظر: تفسير الطبري (505/16).

([20]) سورة فصلت، الآية [40].

([21]) تفسير الطبري (440/20).

فكلمة الإلحاد في القرآن لا تأتي بمعنى الإلحاد بالمفهوم الحالي (المعاصر) المتعارف عليه. فإن عامة المشركين الذين تحدث عنهم القرآن الكريم في زمن النبوة لم يكونوا يجحدون الربوبية بل كانوا مقرين بها في الجملة، كما قال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[22] ولكنهم يعبدون من دون الله آلهة أخرى، ويقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) كما قال تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[23]، وقليل منهم الذين كانوا يقولون (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)[24].

3. بين الإلحاد والزندقة

إذا كان الإلحاد كلمة عربية فصيحة فإن الزندقة كلمة فارسية معربة، وأصلها زَنْدِ كِرَايْ، أي القول بدوام الدهر، قال الفيروز آبادي: "الزِنْديقُ، بالكسر: من الثَّنَوِيَّةِ، أو القائلُ بالنُّورِ والظُّلْمَةِ، أو مَن لا يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ وبالرُّبوبِيَّةِ، أو مَن يُبْطِنُ الكُفْرَ ويُظْهِرُ الإيمانَ، أو هو مُعَرَّبُ: زَنْ دين، أي: دِينِ المَرْأةِ، ج: زَنادِقَةٌ أو زَناديقُ، وقد تَزَنْدَقَ، والاسْمُ: الزَّنْدَقَةُ. ورَجُلٌ زِنْديقٌ وزَنْدَقِيٌّ: شَديدُ البُخْلِ"[25].

وفي المعجم الوسيط [الزَّنْدَقَة]: "القولُ بأَزليَّة العالم، وأُطلق هذا اللفظ على الزرادشتيّة، والمانوية، وغيرهم من الثنوية، وتُوُسِّع فيه فأُطلق على كل شاكٍّ، أو ضالٍّ، أو ملحد"[26].

وقد استعمل العرب هذه الكلمة منذ وقت مبكّر في التّاريخ الإسلاميّ للتّعبير عن طائفة من الملاحدة، وعرفت الزندقة طريقها إلى المعجم العربيّ منذ القرن الثّاني للهجرة فقال عنها الخليل في أقدم معجم عربيّ (هو كتاب العين): "زندقة الزّنديق: ألّا يؤمن بالآخرة وبالرّبوبيّة"[27]، وقيل: هو الّذي لا يؤمن بالآخرة ووحدانيّة الخالق[28].

أما في الاصطلاح: فقد قال التّهانويّ: الزّنديق: هو الثّنويّ القائل بإلهين منهما يكون النّور والظّلمة ويسمّيهما: يزدان، وأهريمن، الأوّل: خالق الخير، والثّاني: خالق الشّرّ يعني الشّيطان، (وقيل) هو الّذي لا يؤمن بالحقّ تعالى وبالآخرة، وقيل: هو الّذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر[29].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: " وَالتَّحْقِيقُ مَا ذَكَرَهُ مَنْ صَنَّفَ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ أَنَّ أَصْلَ الزَّنْدَقَةِ اتِّبَاعُ دَيْصَانَ ثُمَّ مَانِّي ثُمَّ مَزْدَكٍ، الْأَوَّلُ: بِفَتْحِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ التَّحْتِيَّةِ بَعْدَهَا صَادٌ مُهْمَلَةٌ، وَالثَّانِي: بِتَشْدِيدِ النُّونِ، وَقَدْ تُخَفَّفُ وَالْيَاءُ خَفِيفَةٌ، وَالثَّالِثُ: بِزَايٍ سَاكِنَةٍ وَدَالٍ مُهْمَلَةٍ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ كَافٌ. وَحَاصِلُ مَقَالَتِهِمْ أَنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ قَدِيمَانِ، وَأَنَّهُمَا امْتَزَجَا فَحَدَثَ الْعَالَمُ كُلُّهُ مِنْهُمَا، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ

([22]) سورة العنكبوت، الآية [61].

([23]) سورة الزمر، الآية [3].

([24]) سورة العنكبوت، الآية [61].

([25]) القاموس المحيط (891).

([26]) المعجم الوسيط (403/1).

([27]) العين (255/5).

([28]) المغرب في ترتيب المعرب (211).

([29]) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون (117/3).

الشَّرِّ فَهُوَ مِنْ الظُّلْمَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ فَهُوَ مِنْ النُّورِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسْعَى فِي تَخْلِيصِ النُّورِ مِنْ الظُّلْمَةِ فَيَلْزَمُ إزْهَاقُ كُلِّ نَفْسٍ، وَكَانَ بَهْرَامُ جَدُّ كِسْرَى تَحَايَلَ عَلَى مَانِي حَتَّى حَضَرَ عِنْدَهُ وَأَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ قَبِلَ مَقَالَتَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ، وَبَقِيَتْ مِنْهُمْ بَقَايَا اتَّبَعُوا مَزْدَكَ الْمَذْكُورَ وَقَامَ الْإِسْلَامُ.

وَالزِّنْدِيقُ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ، وَأَظْهَرَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْإِسْلَامَ خَشْيَةَ الْقَتْلِ، فَهَذَا أَصْلُ الزَّنْدَقَةِ. وَأَطْلَقَ جَمَاعَةٌ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ الزَّنْدَقَةَ عَلَى مَنْ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَيُخْفِي الْكُفْرَ مُطْلَقًا"[30].

وصفوة القول إن الزندقة تعني إبطان الكفر وإظهار الإسلام، سواء أكان هذا الكفر المانوية أو الزرادشتية أو غيرها، مما جد من النحل الفاسدة والمذاهب الكفرية، مع دوام الانتساب إلى الإسلام والتترس بادعائه، تعوذا من السيف، أو تضليلا للأمة ورغبة في ترويج نحلهم الباطلة في أوساطها، فهم مع كونهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، إلا أنهم يستعلنون ببعض كفرياتهم على الملأ حينا ويسرونها حينا آخر، حسب قوة الأمة أو ضعفها، فيتترسون بإظهار الإسلام خشية انتقام الأمة منهم، أو خبثاً ليروجوا مذاهبهم وعقائدهم الباطلة تحت عباءة الإسلام، وبين أظهر المسلمين.

وممن نسب إلى الزندقة في تاريخنا أبو العلاء المعري فقد استفاضت أقوال أهل العلم في ذمه ونسبته إلى الزندقة، قال ابن كثير في ترجمته: "وقد كَانَ ذَكِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ زَكِيًّا، وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا فِي الشِّعْرِ، وَفِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يعتذر عنه ويقول: إنه إنما كان يقول ذلك مجوناً ولعباً، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد كان باطنه مسلماً.

قال ابن عقيل لما بلغه: وما الذي ألجأه أَنْ يَقُولَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَا يُكَفِّرُهُ بِهِ النَّاس؟ قَالَ: وَالْمُنَافِقُونَ مَعَ قِلَّةِ عَقْلِهِمْ وعلمهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها، وهذا أظهر الكفر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه، والله يعلم أن ظاهره كباطنه"[31].

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَقَدْ رَأَيْتُ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيِّ كِتَابًا سَمَّاهُ الْفُصُولَ وَالْغَايَاتِ، فِي مُعَارَضَةِ السُّورِ وَالْآيَاتِ، عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ فِي آخِرِ كلماته وهو في غاية الرَّكَاكَةِ وَالْبُرُودَةِ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْمَى بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ.

قَالَ: وَقَدْ نَظَرْتُ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى لُزُومَ مَا لَا يَلْزَمُ، ثُمَّ أَوْرَدَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الإسلام أَشْيَاءَ كَثِيرَةً.

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ[32]:

إِذَا كَانَ لَا يَحْظَى بِرِزْقِكَ عَاقِلٌ وَتَرْزُقُ مَجْنُونًا وَتَرْزُقُ أَحْمَقَا

فَلَا ذَنْبَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ عَلَى امْرِئٍ رَأَى مِنْكَ مَا لَا يَشْتَهِي فَتَزَنْدَقَا

وهو القائل[33]:

([30]) فتح الباري (270/12).

([31]) البداية والنهاية (92/12).

([32]) البداية والنهاية (92/12).

([33]) تاريخ الإسلام (149/30).

أَنَهَيْتَ عن قتْل النُّفُوس تعمُّدًا وبَعَثْتَ أنتَ لقَبْضها مَلَكَيْنِ

وَزَعْمتَ أنّ لها مَعَادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالَيْنِ

وقال ابن القيم في طريق الهجرتين: "وممن كان على هذا المذهب -أي الامتناع عن أكل الحيوان- أعمى البصر والبصيرة كلب معرة النعمان المكنى بأبي العلاء المعري، فإنه امتنع من أكل الحيوان زعم لظلمه بالإيلام والذبح"[34].

وقال المعري[35]:

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح

ولا حرج في أن يترك الإنسان أكل اللحم أو أكل المشتقات الحيوانية عامة لان نفسه تعافها، وما أبعد الشقة بين ذلك وبين أن يتعبد الله بتركها، أو يعتقد تحريمها كما يفعل بعض الغاوين! فاعتقاد أنّ ترك أكل المنتجات الحيوانية قربة يُثاب عليه الإنسان أو أنّ الشّخص النّباتي أقرب إلى الله من غيره اعتقاد فاسد، فإن النبي ﷺ وهو أتقى البشر وأشدهم خشية لله ﷻ أكل اللحم وشرب اللبن والعسل، ولمّا أراد بعض أصحابه أن يتعبّد بترك اللحم نهاه ﷺ عن ذلك، فعن أنس ﷺ أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش! فحمد الله وأثنى عليه فقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟! لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[36].

ومنهم بشار بن برد القائل[37]:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الفجار

النارُ عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النارِ

ومن هؤلاء من المعاصرين من توج يوما على أنه عميد الأدب العربي! وهو الذي أنكر المصدر الإلهي للقرآن الكريم في مثل قوله في كتابه الأدب الجاهلي: "لم لا يكون أمية بن أبي الصلت قد أخذ من النبي ﷺ طالما أن مصادر أمية ومحمد واحدة وهي قصص اليهود والنصارى؟!"[38] فهو يعتبر أن مصدر القرآن هو قصص اليهود والنصارى.

كما أنكر في كتابه المذكور بعبارة فاجرة إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- وقصة هجرتهما إلى مكة، زعم أن هذا أسطورة لفقها العرب بعامة وقريش بخاصة ليحتالوا بها على من عندهم من فرس

([34]) طريق الهجرتين (157).

([35]) معجم الأدباء (347/1).

([36]) متفق عليه: أخرجه البخاري (5063)، ومسلم (1401) واللفظ له.

([37]) رسالة الغفران للمعري (34).

([38]) الشعر الجاهلي، لطه حسين (26).

وروم، ليؤكدوا أن لهم أصلا قديما يرتبط بتأسيس إبراهيم وإسماعيل للكعبة، ثم جاء القرآن فصدق هذه الأسطورة، ليحتال على اليهود ليؤلف قلوبهم، إذ مرجعهم إبراهيم جميعا!

فقال في كتابه في الشعر الجاهلي[39]: "للتوراة ان تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها".

فزعم أن إبراهيم وولده لم يوجدا فضلا عن أن يكونا نبيين، فضلا عن أن يقوما ببناء الكعبة بوحي وأمر من الله! ولما كان يعلم أن التوراة والنجيل ذكرا ذلك قبل القرآن اضطر إلى تكذيبهما حتى لا يحتج عليه بهما!

ومنهم من آل على نفسه أن ينزع القداسة عن نصوص الوحيين، بدعوى أنسنة النصوص في أول حركة لها في التعامل مع الواقع، حيث تتحول من منطوق إلى مفهوم، ومن تنزيل إلى تأويل! فتفقد بذلك قداستها وعصمتها، وتصبح تراثا إنسانيا بحتا! لا قداسة له ولا عصمة فيه، هكذا بإطلاق دو تفرقة بين قطعي وظني، أو بين محكم ومتشابه!

لقد رحل من رحل من هؤلاء عن عالمنا! وسيقوا إلى ساحة العدل الإلهي يحملون أوزارهم على ظهورهم إن لم يكونوا قد وفقوا إلى توبة قبل الممات، {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[40]، ويوم يرجعون إليه فينبهم بما عملوا، وصدق الله العظيم: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[41].

وعموما فبين الإلحاد والزندقة بمعناهما العام تقارب، بل لا يبعد أن يقال ترادف، وأما بالمعنى الخاص فبينهما عموم وخصوص، فكل زندقة تعد إلحادًا وليس كل إلحاد زندقة، الإلحاد بمعناه المتبادر إلى الذهن "إنكار وجود خالق والقول بأزلية المادة"، هذه الصورة كانت تمثل شذوذًا فيما مضى تمثلت فيمن كانوا يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، كما قال تعالى {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[42].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: " يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} أَيْ: مَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ، يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَعِيشُ آخَرُونَ وَمَا ثَمَّ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ وَهَذَا يَقُولُهُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الْمُنْكِرُونَ لِلْمَعَادِ، وَيَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الْإِلَهِيُّونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ الْبُدَاءَةَ وَالرَّجْعَةَ، وَيَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الدَّهْرِيَّةُ الدَّوْرِيَّةُ الْمُنْكِرُونَ لِلصَّانِعِ الْمُعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي كُلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا قَدْ تَكَرَّرَ

([39]) الشعر الجاهلي، لطه حسين (26).

([40]) سورة النحل، الآية [25]

([41]) سورة الكهف، الآيتان [103- 104].

([42]) سورة الجاثية، الآية [24].

مَرَّاتٍ لَا تَتَنَاهَى، فَكَابَرُوا الْمَعْقُولَ وَكَذَّبُوا الْمَنْقُولَ، وَلِهَذَا قَالُوا: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ} أَيْ: يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ"[43].

ولكن هذا الشذوذ الذي تخلف به أصحابه عن مواكب العقلاء قد بنيت على أساسه في واقعنا المعاصر دول، وقامت باسمه حضارات، في فترة من الفترات، وإن كان نجمها قد أخذ في الأفول، ثم بدأ في الصعود مجددًا بعد سلسلة الانكسارات التي منيت بها الأمة في أعقاب انكسار انتفاضاتها الشعبية! الأمر الذي يقتضي التعرف على هذه الظاهرة، تحليلاً لأسبابها، وتعرفًا على أبعادها، ثم تلمسًا لسبل مقاومتها، والتصدي لفتنتها.

4. أسباب الإلحاد

يعسر رد أمر الإلحاد في واقعنا المعاصر إلى سبب واحد، بل إلى جملة من الأسباب تفاوتت درجة تأثيرها ولكن أسهمت في النهاية في انتشار هذا الداء السرطاني المميت، فمن أزمات نفسية إبان وقوع المحن والابتلاءات كان مردها إلى شيوع الجهالة بالحكمة من الابتلاء، ومن وجود الشرور في الكون، والجهل بطبيعة الصلة بين الرب وعباده، إلى الضغط الإلحادي الذي تمارسه جماعات الضغط الإلحادية التي ترفض أن يكون للدين موطئ قدم في ساحة التأثير العام في واقعنا المعاصر، إلى إشكالات معرفية: سواء أكانت فلسفية، أم علمية مرتبطة ببعض نظريات العلم الحديث كالداروينية مثلا، إلى إشكالات حضارية: ارتبطت بتاريخ طويل مرير من الصراع مع الكنيسة، بسبب فسادها وفساد رجالها الامر الذي رسخ في الوعي الغربي أن العلم والدين نقيضان، وأن الدين حاجز يحول دون جميع أشكال التقدم العلمي والتطور الحضاري، وأن الإلحاد والتخلص من الدين هو الوسيلة المثلى للتخلص من التخلف وتحقيق التقدم المنشود، على حد قول القائل (أطلق على الماضي الرصاص كن المسدس والجريمة! [44]) ولا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل أن مرد ذلك إلى الخطيئة الشائعة في نقد الملل والمذاهب، والتي تتمثل في الخلط بين كمال القيمة في ذاتها وبين الخلل في تطبيقها، أي أخذها بجريرة من يمثلونها، فكما لا يمكن إسقاط مهنة الطبابة لوجود بعض الأغلاط المهنية عند من يباشرونها لا يجوز إسقاط الدين والتدين لفساد في بعض مؤسساته أو رجالاته!

ومن اقتران القوة المادية بالإلحاد، إلى هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوربية، بالإضافة إلى تخلف الأمة وتمزقها، إلى حروب وتناحرات في أوساط الأمة أغرقتها في كثير من المواقع في شلالات من الدماء! وتوهم أنّ الدين هو سبب الحروب، وأنّ الفِرق المقاتلة المتشدّدة هي ترجمة لمبادئ الإسلام، إلى أسئلة حائرة تحتاج إلى أجوبة عميقة ومقروءة، إلى حدة وشطط في الخطاب الدعوي أما بالجنوح إلى التطرف والغلو في التكفير، أو بالجنوح إلى التحلل والخطاب الخرافي المثقل بالموضوعات، إلى جمود في الخطاب العقدي، واجتراره نفس الموضوعات التقليدية المكررة، دون قدرة على التجديد لمواكبة المستجدات العقدية المتسارعة، والشبهات الإلحادية التي تتساقط على رؤوس شبابنا، دون أن تكون لهم حيلة في دفعها!

([43]) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (7/268- 269).

([44]) خطاب في شهر حزيران، نزار قباني (124).

إلى تقلبات مواقف بعض الرموز وانقلابهم على أعقابهم، إلى استبداد الأنظمة القمعية وفجورها في حربها على التدين والمتدنين، إلى شيطنة المتدينين وتضخيم بعض نقائصهم وتحميل الدين تبعاتها، إلى غير ذلك من الأسباب التي لا تخطئها العين.

وسوف أركز على سببين من أسباب فشو هذا المنكر المقيت: الغلو في الدين، والأئمة المضلون، وفيما سيعرض من أوراق في هذا المؤتمر تغطية لبقية الأسباب بإذن الله.

5. الغلو في الدين كان من أبرز أسباب الإلحاد

الغلو في الدين من أنكى آفات التدين وأكثرها خطورة، وسبيلها إذا لم تتدارك بعلاج مبكر إلى الأيلولة إلى التكفير وما يتبعه من التفجير والتدمير، أو إلى التحلل وخلع الربقة والإلحاد.

إن كثيرا ممن آل أمرهم إلى الإلحاد كان إلحادهم ردة فعل عنيفة لظاهرة الغلو في الدين والتطرف في فهمه أو في تطبيقه! وما ينشئه ذلك من الشطط والحدية في تبني الآراء، فتتشكل عقلياتهم ومشاربهم على هذا النحو، فعندما تتبدل بعض مفاهيمهم ويضطربون أمام بعض القضايا أو التساؤلات فإنهم يغلون في الاتجاه المقابل، ويتخذون موقفا معاديًا للدين والتدين، لتوهمهم أنّ الدين هو سبب العنف والاحتراب، وأنّ الفِرق المقاتلة المتشدّدة هي ترجمة لمبادئ الإسلام، أو تعارض الدين بزعمهم مع حقوق الإنسان، ولعل من بعض هؤلاء من كان قد حفظ القرآن وتعلم الدين وربما تتلمذ على بعض المشايخ ثم صار به الحال إلى الإلحاد!

وقد يسبق مرحلة الإلحاد غاشية من الإحباط والغضب، وتخبط بين متناقضات عديدة في حياته، لا يجد لها مخرجا في زعمه إلا إنكار كل الثوابت وتحطيمها وعلى رأسها الدين، لكي ينطلق متحررًا من كل القيود التي تسببت في معاناته! ومنهم يتوجه نحو الإلحاد تشوفا إلى التحرر من كل القيود، فهو يرى أن المؤسسات الدينية والمجتمع يستخدمان الدين بشكل نفعي ويوظفان السلطة الروحية لقمعه وسلب حريته.

6. الأئمة المضلون كاسحات ألغام أمام الإلحاد!

لقد كان لتقلبات بعض رموز العمل الدعوي في مواقفهم من النقيض إلى النقيض استجابة لتحولات السياسة والساسة، أثر لا يمكن تجاهله في نشأة فتنة الإلحاد أو في تناميها، ولعل هذا يذكر بهذا المثل القرآني الذي ضربه الله -جل جلاله- لمن آتاه الله آياته فانسلخ منها، كما جاء في قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }[45].

([45]) سورة الأعراف، الآيتان [175- 176].

"إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والارتفاع.. ولكن ينسلخ من هذا كله انسلاخا، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضًا للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه، لنجد أنفسنا أمام مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد، كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر، فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها، مشهد اللهاث الذي لا ينقطع، سمع التعليق المرهوب الموحى على المشهد كله:

{ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ} ذلك مثلهم! وهل أسوأ من هذا المثل مثلا؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا"[46]؟!!!

أو يذكر بما جاء في كتاب قصة الحضارة[47] عن أخلاق رجال الكنيسة المنفرة من الدين في إيطاليا بأنها أحط من أخلاق العسكر! ولعلنا اليوم نمر بالمنعطف التاريخي ذاته لأوروبا في حقبة القرون الوسطى وما بعدها في فساد رجال الدين النصراني وتحالفهم مع الإقطاعيين ضد الفلاحين الفقراء، ومع الملوك ضد الشعوب المقهورة، ما تسبّب بكفر الناس برجال دينهم وبكنيستهم وبالرب الذي يدعون إليه، مع ملاحظة عدم التعميم، ففي رموزنا الدعوية فضلاء ربانيون، وفي عسكرنا شرفاء مجاهدون!

إن من يرفع من الدعاة شعارات دعوية جميلة ويشكل بها وعي الأمة حينا من الدهر ثم ينقلب على عقبيه فيناقضها في واقعه العملي، فإنه بهذه الازدواجية المقيتة سيُزهِّد الناس بذاته وبمبادئه معا، هذه طبيعة السواد الأعظم من الناس، وأقل القليل من البشر هم الذين يمتلكون القدرة على الفصل بين النموذج والتطبيق أو بين المثال والواقع!

لقد دخلت الإسلام أمم كثيرة وآمنت به من خلال معاملة المسلمين الحسنة معهم، فتعرفوا على الدين من سلوك أهله كما حصل في انتشار الإسلام في شرق آسيا دون أن تراق قطرة دم واحدة! وكذلك فإن العكس صحيح، فإن انحراف الرموز الدينية عن الإسلام في معاملاتهم المالية، أو علاقاتهم الاجتماعية والأخلاقية يصدّ العباد عن الدين والتدين، ولهذا فإن الله تعالى العليم بطبيعة النفس البشرية لم يُغفل الأثر السلبي لمثل هذه الصدمة الوجدانية، فقال سبحانه: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}[48].

ولا يخفى على المتابع للمشهد عن كثب أن من الأئمة المضلين وخطباء الفتنة مَن صاروا فتنة ليس للذين كفروا فحسب، بل حتى لكثير من الذين آمنوا أيضًا!

([46]) في ظلال القرآن (1397/3).

([47]) قصة الحضارة، تأليف: ول وايريل ديورانت، الناشر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، في 46 مجلد.

([48]) سورة الممتحنة، من الآية [5].

ولعل أبشع أنواع التنفير من الدين عندما يصبح بعض المشايخ جسورا يمتطيها الطغاة لنيل شهواتهم، أو يتنفل بعض المنتسبين إلى العلم بأن يصنع الطغاة من فتاواهم أقطاب رحى يطحنون بها الشعوب، ويغرقون الأرض بدماء الأبرياء، ويملؤون السجون بصفوة المجتمع.

ولهذا جاء عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ**»[49].

ولا يفوتنا تدبر التنبيه التربوي النبوي العظيم: "إن منكم لمنفرين"، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فُلاَنٌ فِيهَا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كَانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ**»[50].

هذا خطاب النبي ﷺ لبعض أتباعه ممن بالغ في العبادة في غير مكانها من جيل الصحابة، فإذا كان تطويل الصلاة والغلو في العبادة ينفر صحابة الرسول ﷺ من الدين، فما عسى أن تكون درجة التنفير من الدين الذي سيرتكبه الأئمة المضلون في أيامنا هذه للأجيال الحائرة؟!

ونحن لا ننكر أن هناك كيانات سياسية يضيق صدرها بالنصيحة، ولا تطيق أن تسمع مراجعة أو كلمة نصح من أحد، وقد تزج بالناصحين السلميين في غياهب سجونها لمجرد النصح أو الدعاء لهم! وأكرر لهم وليس عليهم! إذا بلغ الأمر بالدعوة هذا المبلغ في ناحية من النواحي فنصبح أمام رخصة وعزيمة، فلأهل العزائم أن يصدعوا بالنصيحة، وأن يجهروا بكلمة حق عند سلطان جائر[51]، وأن يغرروا بأنفسهم في إعزاز الدين وإجلال رب العالمين! ويسع أهل الرخص أن يسكتوا شريطة أن لا يزينوا باطلا، وأن لا يعينوا عليه، ومن عجز عن قول الحق فليصمت ولا ينطق بباطل، وصلوات الله على من قال لكعب بن عُجرة: «**أَعَاذَكَ اللَّهُ يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ**»، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: «**أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَهْدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي ...** »[52].

7. هل بلغت فتنة الإلحاد مبلغ الظاهرة؟

إن المشكلة تصبح ظاهرة كما يقول أحد الباحثين إذا "تكررت حدوثها، واتسعت رقعتها، وتنوّعت شرائحَها، وتقاربت زمنا، وتفاقمت حجما، واستعصت على الحلول النمطية، وانطلقت من فكر يغذيها لا من ردود أفعال" فهل أصبح الإلحاد فعلا ظاهرة أم أنه حالات فردية ضخمتها وسائل الإعلام؟؟

([49]) أخرجه أحمد (27485)، والدارمي (211)، والطيالسي في المسند (1068) باختلاف يسير. وقال الألباني في الصحيحة (1989): صحيح بمجموع طرقه.

([50]) متفق عليه: أخرجه البخاري (7159) واللفظ له، ومسلم (466).

([51]) أخرجه أبو داود (4344) واللفظ له، والترمذي (2174)، وابن ماجه (4011): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ**». وحسنه البغوي في شرح السنة (314/5)، وابن كثير في البداية والنهاية (243/1)، وابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (468/3).

([52]) أخرجه أحمد (23261). وقال ابن حجر في الأمالي المطلقة (219): حسن.

لا يخفى أنه منذ اضطراب المشهد السياسي في الشرق وقد باتت كلمة "الإلحاد" مطروقة في أوساط شبابنا بمختلف شرائحه بكثافة لم تكن معهودة من قبل، وهو ما يطرح سؤالا حول الإلحاد: هل بات فعلا ظاهرة مجتمعية؟ أم أن الامر لا يعدو أن يكون تضخيما من وسائل الإعلام التي يملك خصومنا أزمتها؟

لكي نجيب على هذا السؤال إجابة دقيقة لابد من مؤسسات متخصصة في الرصد والاستقراء والتحليل وهذا ما نفقده بصورة مهنية في وقتنا الراهن، وما وجد منه فهو بأيدي خصومنا، وأما الاعتماد في ذلك على الانطباعات الشخصية أو الوسائل الإعلامية فإنه سيفتقد الدقة والموضوعية، ويخرج عن المنهجية المنشودة.

لقد بالغت وسائل التواصل الاجتماعي في تضخيم الأمر، فأصبح عدد البرامج الإلحادية على منصات التواصل الاجتماعي بالعشرات والمشاهدون لها بالملايين، ومع هذا فإن الذي نستطيع تحريره مبدئيًا ثم نحيل الأمر إلى المؤسسات المتخصصة أن الإلحاد بمعناه "الكلاسيكي" المتبادر إلى الذهن بمعنى:

"إنكار وجود خالق والقول بأزلية المادة" ليس بظاهرة شبابية عامة في أوساطنا الإسلامية، وإن كان صوته عاليا عبر منصات التواصل والتضخيمات الإعلامية التي تطل علينا.

8. كيف نتصدى لفتنة الإلحاد

سأقتصر في حديثي عن علاج أمر الإلحاد عن أمرين كبيرين: تأكيد الفصل بين المثال والواقع، وضبط الخطاب الدعوي وترشيده وتطويره، وأرجو أن يكون فيما سيعرض من أوراق تغطية لبقية القول في ذلك الفصل بين النموذج والتطبيق أو بين المثال والواقع.

لا بديل من تعميق الوعي بضرورة التفريق بين "تعصيم" علماء الدين، وهو الآفة المرفوضة، فلا عصمة عند أهل السنة إلا للنبيين، ثم لمجموع الأمة التي عصمها الله أن تجتمع على ضلالة[53]، وبين "التوقير" العميق لهم والمشروط بالتزامهم بالحق لا بشخوصهم، وأن تكون المبادئ فوق حملتها، وتكون هي الميزان في الحكم عليهم وليس العكس.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول: "شَيْخُ الْإِسْلَامِ ـيقصد الهروي صاحب منازل السائرين- حَبِيبٌ إلَيْنَا، وَالْحَقُّ أَحَبُّ إلَيْنَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَنْ عَدَا الْمَعْصُومِ ﷺ فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ. وَنَحْنُ نَحْمِلُ كَلَامَهُ عَلَى أَحْسَنِ مَحَامِلِهِ، ثُمَّ نُبَيِّنُ مَا فِيهِ"[54].

ولا يخفى أن الموضوع دخل دائرة الاستراتيجية في الحرب على الدين من خلال تشويه المتدينين، وحرق النماذج، فالإعلام يسلط أضواءه على علماء السلاطين، ويعرض تزلفهم، ويرقص على وقع تناقضاتهم، فتتضخّم الصورة القبيحة لبعض متصدري الدعوة والفتيا والإرشاد ممن اختار السقوط.

ويأتي دورنا في إبراز الصورة المشرقة والمشرّفة لحملة الشريعة في تراثنا الإسلامي كأحمد بن حنبل والعز بن عبد السلام وابن تيمة وغيرهم، ثم انتهاء بمئات من حملة الشريعة والدعوة المُبَرَّزين الصادقين الممنوعين من الكلام، وعشرات المسجونين من الصادعين بالحق، وغيرهم ممن ثبتوا على ما كانوا عليه، أو على الأقل لم يستجيبوا للباطل، فلم يصدقوا بكذب ولم يعينوا على ظلم، فضُيّقت عليهم حركتهم في الحياة، وخسروا مواقع ومصالح كثيرة، لكنهم صبروا واحتسبوا، وكانوا منارات هدى يستدل بهم الشباب الحائر والجماهير المصدومة إلى سلامة الطريق، ويضرب بهم المثل بالثبات على الحق، وبذلك تكون الصورة متكاملة ومتوازنة لتصدق وتصيب أحكام الناس على عالم الأشخاص والأفكار.

9. ضبط الخطاب الدعوي

للخطاب الدعوي دوره البالغ في سد الذريعة لهذه الظاهرة أو فتحها! فلا ينبغي الإغراق في التخصص بحيث لا يفهمه إلا الصفوة من الناس، ولا المبالغة في التسطيح بحيث يكون مثار للسخرية والرثاء، والازدراء.

([53]) قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (759/1): «**لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ**» وَعِنْدِي أَنَّ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ لَا يَجُوزُ خِلَافُهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَى جَمِيعِهِمْ جَهْلُ التَّأْوِيلِ، وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: 143] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمَاعَتَهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا حُجَّةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ حُجَّةٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَدَلَائِلُ الْإِجْمَاعِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَة. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (83) وحسنه الألباني.

([54]) مدارج السالكين (262/2)، ط. عالم الفوائد.

ومن مشكلات الخطاب الدعوي في واقعنا المعاصر ما يلي:

- سوء النقل من كتب التراث دون مراعاة حال المخاطبين: فيقع التنافر الشديد بين مضمون الخطاب وعقلية المتلقي، إن الداعية الموفق يميز الصحيح من السقيم في المرويات التراثية، ويختار منها ما تبلغه عقول من يخاطبهم، حتى لا يكون النقل غير الراشد فتنة لبعضهم، قَالَ عَلِيٌّ: «**حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ**»[55]. وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»[56].

- التجريد في الخطاب الدعوي، وانفصاله عن أزمات المجتمع وأسقامه، وعدم اهتمامه بهموم الامة وطموحاتها، ومع هذا التجريد ستظل المواعظ المجردة محلقة في سماء الدعوة دون أن تحرك الواقع أو تؤثر فيه.

- تشرذم الدعاة واختلافهم في كثير من القضايا والأحكام، وما يعنيه ذلك من الفوضى الفكرية والفقهية التي ينشئها هذا الواقع المأزوم، وما يؤول إليه من عواقب وخيمة تبدأ من تأخر القناعات، وتنتهي بتخلف الاستجابة.

- قصر الخطاب الدعوى في كثير من الأحيان على الشباب المتدين من رواد المساجد المتعاطفين مع الإسلام بطبعهم، وإغفال غيرهم ممن هم أحوج إلى ذلك الخطاب، فكأنما نكلم أنفسنا في دائرة مغلقة، ولا نريد أن يصل خطابنا إلى غيرنا!

- اضطراب الخطاب الدعوي: فأحيانا يكون مبشرا ومغرقا في التفاؤل، وأحيانا يكون منفِّرا ومغرقا في التشاؤم، وتارة يتحمس ويرسل دفقات تثويرية، وتارة أخرى يضعف ويحبط ويرسل بدفقات إحباطية!! ومرات كثيرة يتحير لا يدري يتجه!

- عدم اعتبار الملابسات التي تحيط بالمخالفات وأصحابها زمانا ومكانا، ففي ظل التغول العلماني واجتياح الاستبداد مجتمعاتنا المأزومة، وشيوع مشاعر القهر والانكسار والاغتراب في أوساط أمتنا المنكوبة ينبغي تجنب الاستعلائية في التعامل مع أهل البلاء من المفتونين، والرفق في الإنكار عليهم، فإن استحياء النفوس بتألفها على التوبة أحب إلى الله من استباحتها بحملها على العناد والمشاقة، ولقد ذكر لي أحد المشتغلين بالدعوة أن لقاء جمع بين طه حسين في إبان فتنته وحسن البنا -رحمه الله- في أعقاب محاضرة ألقها الشيخ البنا -رحمه الله- بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حول كتاب مستقبل الثقافة في مصر، والذي ضمنه طه حسين قوله: "علينا أن نسير سيره الأوروبيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم اندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، وأن نُشعر الأوروبي: أننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على

([55]) أخرجه البخاري (127).

([56]) مقدمة صحيح مسلم (11/1).

الأشياء كما يحكم عليها"[57]، والتي حرص طه حسين على حضورها خفية، فأخذ الشيخ البنا يناقش الكتاب بموضوعية بحتة وأدب جم، وآل على نفسه ألا يرد على الكتاب إلا من خلال الكتاب نفسه، وما حواه من متناقضات يضرب بعضها بعضا، هذا بعد أن أطري عقله وحدة ذكائه، وذكره بأنه في إمكانه لو شاء أن يسخر ملكاته المدهشة في نصرة الدين الذي ينتسب إليه، وفي نصرة اللغة التي نصبته عميدا لها!

وفي اليوم التالي: طلب الدكتور طه حسين من أحد موظفي وزارة المعارف، وكان على صلة وثيقة بالشيخ البنا، أن يرتب له اجتماعًا مع الشيخ حسن البنا في أي مكان بحيث لا يكون معهما أحد، وبحيث لا يعلم بهما أحد، وتمَّ الاجتماع، وبدأه الدكتور طه حسين بقوله: "لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأنني حضرت محاضرتك، وبأنني كنت حريصًا على حضورها، وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها، لأنني أعرف من هو حسن البنا، وأقسم لك لو أن أعظم عظيم في مصر كان في مكانك ما أعرته اهتمامًا".

قال الشيخ حسن البنا: فشكرته، ثم سألته عن رأيه في المواضع التي وجهت النقد إليها في الكتاب، وهل لديه من ردّ عليها؟ قال الدكتور طه حسين: "ليس لي ردّ على شيء منها، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك، وهذا هو ما عناني مشقة الاستماع إليك، ولقد كنت أستمع إلى نقدك لي، وأطرب! وأقسم يا أستاذ حسن لو كان أعدائي شرفاء مثلك لطأطأت رأسي لهم! لكن أعدائي أخسَّاء، لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف، وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمي من التاريخ، وقد كرّست حياتي لإحباط مكايدهم، وها أنا ذا بحمد الله في الموضع الذي تقطع أعناقهم دونه... ليت أعدائي مثل حسن البنا؟ إذن لمددت لهم يدي من أول يوم[58].

فهو يقول: لو عاملتني النخب المتدينة من أهل الشرق بمثل ما عاملني به هذا الداعية لكان لي مع مواقفي الفكرية شأن آخر!

أقول: ولكن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه! وهذا الموقف الذي نذكره الآن ليس اعتذارا عمن آثر الفتنة وحملته الخصومات الشخصية والاحتقانات الحزبية والفكرية على أن يبيع آخرته بدنياه! ولكنه تنبيه إلى ضرورة الرشد في الخطاب الدعوي والسياسة الدعوية، وقد جاء في قرار لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا حول ضبط الخطاب الدعوي وتجديده ما يلي:

10. حول تجديد الخطاب الدعوي

- تجديد الخطاب الدعوي يراد به تجريد مضمونه مما علق به من شوائب الغلو والتفريط، وتجديد كيفية أدائه بما يلائم الزمان والمكان والمخاطبين، وتجديد الاجتهاد عند تغير المناطات، وتمييزه عن التحريف المذموم.

([57]) مستقبل الثقافة في مصر، لطه حسين (41)، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993م.

([58]) أسرار التميز الإداري والمهاري في حياة الإمام الشهيد حسن البنا، محمد عبد الجواد (17-18).

- من أولويات تجديد الخطاب الدعوي التناهي عن الفرقة والاختلاف، والتداعي إلى الجماعة والائتلاف، وتجنب الدخول في الخصومات المفتعلة في المسائل الاجتهادية، وإشاعة فقه الاختلاف، وثقافة إنصاف المخالف، والرفق في الإنكار عليه، وتجنب الاستعلاء في التعامل معه، فإن استحياء النفوس بتألفها على التوبة أحب إلى الله من استباحتها بحملها على العناد والمشاقة.

- الموازنة بين فريضة الاتباع وضرورة الاجتماع عند التعامل مع المخالف، فمقام التعليم والبناء يقتضي الحرص على صحة المعتقد وسلامة المنهج، ومقام العمل العام يقتضي الحرص على الائتلاف والاجتماع، والتعاون على المشتركات الدعوية مواجهة للتحديات المصيرية.

- التركيز في الخطاب الدعوي على الثوابت الشرعية، وإحياء الربانية، وتصحيح المفاهيم وتفنيد الشبهات، وتأصيل فقه الخلاف، والاهتمام بالقضايا المحلية للأقليات الإسلامية، واستفاضة البلاغ بينها بما لا يسع المسلم جهله من حقائق الإسلام عقائد وشرائع وقيما وأخلاقا، وتوجيه العامة إلى طلب العلم النافع، وتهيئة الآليات والوسائل التي تعين على ذلك.

- عدم نقل الخصومات الدعوية في القضايا الاجتهادية الى المنابر العامة، فإن هذا أعون على احتواء النزاع، وتقبل أطرافه للحق، والأصل أن تحل مثل هذه الخصومات داخليا، ومن خلال الآليات والوسائط الإسلامية.